٣ / استباحة الأجنة :

سياسة الإجهاض

- الإجهاض الملحى
- رؤية جديدة للإجهاض ومفهوم إباحته

الإجهاض الملحى

أعيدت صياغة الأسس التى تحدد التعامل مع حالات الإجهاض ، بعد مراعاة عديد من العوامل ، ولعل أهمها الإحساس بكينونة الجنين بعد تطور الموجات فوق الصوتية على نطاق واسع لمتابعة الحمل والولادة ، وتطور العلاج الطبى للجنين أثناء حمله ؛ فكان ولابد من وضع إطار ثابت وتحديد الصورة الكاملة للتشريع الخاص بهذه الممارسة .

ومن خلال قراءة قريبة لشريط عرض ، تحت اسم «حل بيل آلن» ومدته ٩ دقائق يعرض فيها قصتها ؛ فقد استطاعت أن تواصل حملها على الرغم من الإجهاض غير الكامل الذى تعرضت له ، وعلى الرغم من المعاناة التى تحملتها ، والإجهاد الذى شعرته فقد استطاعت استرداد جنينها ومنعه من الخروج . ومع هذه التجربة يتضح مدى قوتها فى رفض تلك اللحظة .. لحظة انفصالها عن وليدها ، وهو غير قادر على مواجهة الحياة .. وفى هذا الشريط الذى عرض فى فترة ما بعد الثمانينيات ، استخدمت عبارات اصطلاحية لا يمكن أن يستمد معناها من مجرد فهم كلماتها المنفصلة ، وساعد استخدام الأسلوب البلاغى مع جمال البيان ، فى جو موح من المؤثرات الصوتية المؤدية لبيان الهدف المقصود أن يكون لهذا العرض انطباع شديد فى نفس المشاهد عن مدى تأثير العلم وقوة التقدم الطبى .

ونعود بذاكرتنا إلى شريط « الصرخة الصامتة » ، فقد أوضح باستخدام الموجات فوق الصوتية عملية الإجهاض ، وتناولها من وجهة نظر الجنين . وعلى الرغم من كونه يوضح حدثاً طبياً معقداً ، إلا أنه يعد توضيحاً بيولوجياً لبعض الحقائق . فمن أحداثه يعرض نوعاً من الإجهاض ، يسمى بإجهاض الفصل الثانى من الحمل (الثلاثة شهور الوسطى) ، واستطاع أن يصور نمو الجنين حتى يصل لهذه المرحلة . ولكن هذه الحقائق لم تعرض مجردة ؛ لأن ما صاحبها من قوة إيقاع الصوت وتأثير الصورة مع العرض يختلف تماماً عما إذا عرض الشريط صامتاً . ونتساءل عن البعد الاجتماعى والتاريخى والثقافى والفكرى الذى يستمد منه هذا الشريط فحواه ، وعن مدى تأثير الاختيار المسبق لهذا العمل ، أو الوقفة العقلية أو العاطفية المسبقة فى اتخاذ هذا القرار الصعب ، لإنهاء فترة الحمل .. وكيف يكون القرار صائباً وعقلانياً، ويستند إلى ثقافة فكرية .

وفى هذا الفيلم نسافر فى فتحة طويلة كالقناة ، بخطى متمهلة . ثم يسرع الفيلم بالتأثير المسرحى لوجودنا داخله ، وقوة ما نواجهه ؛ فهذه المنطقة فتحت حديثاً للرحلات الجماهيرية ، فهى رحلة للطبيعة أو لجسد حقيقى ، يبدو فى قمة مجده الوظيفى ، المجد الذى لا يمكن انتقاص قدره . وبدأت الرحلة دون أن يخبرنا أحد بالمكان الذى توجد فيه أو المكان الذى ستذهب إليه ، أو بمن قام بمثل ذلك العمل، الذى تستخدم فيه تلك التقنيات العالية الدقة .

وكل حملة دعائية تحتاج لمن يقوم بتفسير هدفها ومضمونها وتحديد الموضوع المقدم فيها ، والتعليق عليه بصورة ، تخدم الغرض الذى قدمت من أجله . وقد عمل هذا الشريط على تكييف الظروف والحقائق المقدمة فيه ، وساعده على إظهار المادة المعروضة ، التعليق المشرق الذى بدأ قبل عرض الصور ليوحى بجو من التوقع والإثارة ، ويجد المشاهد نفسه محاطاً بسلسلة من الافتراضات التى تبدأ مع القصة . فيعطى بذلك تهيئة مناسبة لبداية العرض ، حيث يدخل المشاهد عالماً طبيعياً أو بيولوچياً . ويبدأ رحلته الاستكشافية التى تبدأ بعرض ثلاث لحظات بداخل القناة التناسلية : حويصلة بداخلها بويضة ناضجة تامة التكوين ، تحيطها خلايا مغذية وبعض فجوات مائية . ومن الخارج تبدو الأهداب فى قناة فالوب ، وهى تمس برقة الحويصلة المنتفخة قبل خروج البويضة منها . ومع تأكيد المبدأ الذى رسخ فى الأذهان ، ويعطى المرأة حق اتخاذ قرار الإجهاض ، ذلك الحق الذى اعتبرته المرأة انتصاراً لمعركتها التحررية . ثم بدأت الصورة تقترب ، وتوضح أكثر أن هذا العمل يتم بإرادة المرأة واختيارها ، ويبدأ الشريط بصوت يقول «أنا أختار .. أنا سأختار» «جسدى .. اختيارى» ، وكل تعبير من هذه التعبيرات يخرج من وجه امرأة مضغوط خلف زجاج مبتل ومشوه .

والجزء الثانى من الشريط يوضح ما سبق اختصاره أو إجماله بالصعود لمرحلة إجهاض الجنين ، بعد أن أتم داخل رحم أمه الثلاثة شهور الوسطى ، وأصبح عمره ستة أشهر . ذلك الإجهاض الذى أطلق عليه «الإجهاض الملحى» فى هذا الشريط ، ويبدأ العرض بسقوط صخرة ملحية موجودة من يد موجودة أعلى الشاشة ، ثم يعكس اتجاهها مرة ثانية ليعبر عن الاختيار المتاح ، والذى أعيد تشكيله فى هذه الفترة . وقد لقى هذا العرض قبولاً جماهيرياً ؛ فقد ساهم التصوير بما يصاحبه من مؤثرات فنية ، وبما ارتبط بكل صورة من معلومات صيغت فى شكل تعليق أسفل كل لقطة ؛ فقد ارتبط المشاهد وتفاعل مع عرض التفصيلات التكنولوجية المستخدمة ، والتى أوضحت المعاناة الجسمانية التى تصاحب عملية الإجهاض ، وتابعها بصورة مؤثرة لحظة بلحظة حتى وصل إلى اللحظة الحاسمة .. تلك التى أسماها لحظة الكشف عن الحقيقة .. وهى اللحظة التى تعبر عن إجهاض الجنين تماماً .

وأوضحت بداية الفيلم أن إجراء عملية الإجهاض يستلزم فى أول مراحلها محلولاً ملحياً يتكون من ٢٠٠ حجم من الملح مذاباً فى الماء . ويبدأ حقنه فى السيدة فيسبب تقلصات عنيفة فى الرحم ، خلال دقائق معدودة . وتلا ذلك نص آخر : «كلوريد الصوديوم مع حافظ ملحى ومدمر ملحى» ، وبين اللحظتين ظهرت صورة داخلية للجسم ؛ ليتخيل المشاهد ما تعنيه تلك اللحظة .. فهى مقرونة بمنظر

لم يصور على الشاشة .. منظر الضحية . ويتبع ذلك ظهور كتلة من سائل أزرق ، تتوالى بعدها ظهور سوائل الجسم كمادة سميكة بيضاء ، تبدو من خلال نسيج مسامى ، ثم عضلة منقبضة . وفى النهاية يظهر فيض من المادة نفسها التى بدأ بها الشريط (السائل الملحى) ، يمر خلال فتحة ، توصل إلى نفق ضيق ، ثم مرة أخيرة يظهر السائل الأزرق .

وعلى الرغم من أن هذا الفيلم يعرض صوراً هادئة وليست عنيفة ، ولا تمثل أذى للمشاهدين ، إلا أن تنظيمها وسرعة ايقاعها تعزز الإنطباع بحدوث شيء غريب وغير مألوف ، بالإضافة إلى ذلك أمدت النصوص المكتوبة المشاهد بتأثير عميق للمشاهد التى تعرض ، وخاصة مع التقلصات العنيفة للعضلات والملح يدمرها ، وكذلك صورة السيدة التى أجهضت ، وهى نفسها التى ظهرت فى أول الشريط خلف الزجاج المبتل . يراها المشاهد وهى مستلقية على ظهرها ، ويعلو قسماتها إعياء شديد ، وتدور بعينيها تلفهما ، ثم تطويهما معبرة عن الألم الشديد الذى تقاسيه ، وكأنها تعيش كابوساً مخيفاً ، ثم تقع صخرة الملح على وجهها كقطعة من الثلج ، بينما يعلو أنين وتأوه إنسان مفجوع ، يعلو ليغطى على الموسيقى الهادئة ، وتغلق الكاميرا فتحتها لتركز على المشاهد ، وتبدو وكأنها لحظة تأمل وترو مدروس ، ثم ينتهى العرض بظهور الشاشة بيضاء تماماً .

ويحس الرائى بالقرب والألفة الحميمة مع تلك التجربة ، حتى يشعر وكأنه يغرق بداخلها وتحتويه ، وفجأة ! يتنبه لضحكة طفل . ثم تظهر صورة جنين عمره ١٨ أسبوعاً يطفو ، كاملاً صحيحاً ، وكأنه يحيا بداخل الرحم ، ويبدو على وجهه الهدوء والراحة ، ويقابل تلك الصورة منظر تمزيق أوصال جسد الجنين أثناء الإجهاض ، مما يدعو المشاهد للتعجب والتأمل ، ثم التساؤل : هل هذا الجنين هو نفسه الذى بدأ موته مع تعليق المحلول الملحى لأمه ؟ ثم يسمع صوتاً يقول : « صه ياطفلى .. صه ياطفلى » .

ومرة ثانية تأتى ضحكة الجنين مع صورته ، عندما يكمل ١٨ أسبوعاً ، ويرفع يده ، وكأنه يحمى نفسه من النظرة الثاقبة التى تخترق عالمه الخاص ، وتظهر صورة امرأة خلف الزجاج تمتص الماء كما يفعل الجنين داخل الرحم ، وملامحها مبتلة ومشوشة .. ثم يبدأ المزاح بما يمكن أن يدور بين الأم وطفلها – ومع المؤثرات الفنية – يسمع صوتها تقول : «أنا أسمعك» ، ثم صوت امرأة تقول فى سخرية : «أنا أراك.. الوداع ياصغيرى !» .

وعلى الشاشة تظهر صورة جنين عمره ٧ أسابيع ، وصورته مكبرة ١٥ مرة لتملأ الشاشة ، ويداه تلوحان ، ثم يكمل الرواية : «طفل من خيالى !» .. «ولن

تكون طفلاً أبداً !!» .. «ولحماً من لحمى !» .. «ولن تكون لحماً أبداً !!» ثم يظهر جنين عمره ١٨ أسبوعاً ، وبعده صورة المرأة خلف الزجاج .. ويعرض بعد ذلك لحظة بداية الحمل ، منذ التفاف الحيوانات المنوية حول البويضة ، موضحاً الإبداع فى الخلق وما يحتويه من انقسامات متتالية لهذه الخلية الصغيرة بتتابع منظوم؛ لتؤلف هذا المخلوق الرقيق الصغير . ثم يأتى بعد ذلك الإتلاف المتعمد والتدمير القاسى بعزم الإنسان وإرادته ، ويؤكد ذلك الصوت المنبعث داخل الشريط قائلاً : «يقطع الأوصال ، يحطم ، يبدد» .. وهكذا يعلن الصوت عن السقوط مجازياً وحرفياً.

ويخرج المشاهد من الطريق نفسه الذى دخل منه هذا المكان الحيوى مجبراً ، أو يطرد كما طرد منه ساكنه الأصلى الذى كان يقطنه . ومع تنفس عسير يلازم هذا الخروج ، ينادى صوت : «هذه أوقات خطيرة !» . ويتعجب المتابع لهذا الفيلم : لمن تكمن الخطورة ؟ ولكن لا أحد يجيب . ويخرج الجنين الصغير محمولاً على أيدى مكسوة بالقفازات الجراحية .. تساعد ذلك الصغير الذى ينسحب من الحياة ، ويختفى نهائياً . ثم يأتى مشهد السيدة الراقدة على ظهرها ، وهى تتلوى من شدة الألم ، وفى النهاية تطفو صخرة ملحية إلى أعلى الماء ؛ حتى تصل إلى اليد الموجودة فى أعلى الشاشة .. وفى تهكم يقول الصوت ويكرر : «جسدى .. اختيارى .. طفولتى» .

رؤية جديدة للاجهاض ومفهوم إباحته

هذا العرض نقل المشاهدين إلى عالم خيالى بعض الشئ ، أو هو عالم الرغبة والمعرفة والمعانى المختلطة التى يصعب تمييزها ، ولكن مع توالى المقالات الطبية والعلمية التى تناقش وتوضح التطورات المعاصرة فى هذا المجال ، والتى كان هدفها توضيح عملية الإجهاض وإماطة اللثام عن أسرار الحمل والإنجاب من خلال الحقائق الأساسية والحيوية عن حياة الجنين . وبدأ الكشف عن حياته المستقلة وهويته كشخص حى حساس ورقيق وبرئ ، فبدا وكأنه طراز مصغر من إنسان بالغ ، ولكن بقى أثر شريط الفيديو والصورة الخيالية التى قدمها للجنين ؛ ليقص رواية الرفض والندم على اختيار القيام بعملية الإجهاض ؛ فقد أوضح أن تلك العملية تكون فى أبسط صورها تشويهاً ، وفى حقيقتها نوعاً من القتل .

ولقد أحدث عرض هذا الفيلم دوياً وتأثيراً قوياً ، ولكن قبول مضمونه اختلف باختلاف المرحلة العمرية للمشاهدين ؛ فقد أبدى كبار السن اعتراضاً على كونه اختيارا مسبقاً ، وأشاروا إلى رفضهم لتنافر الأصوات التى صاحبت عرض الشريط . وعلى الرغم من أن أحداثه تركز على ضياع الجنين ، إلا أن مفهوم الضياع فى تلك العملية يكون لهذه الممارسة فى حد ذاتها . أما الشباب الأحدث سناً فقد كانت

المعلومات المصاحبة لعملية الإجهاض بالغة الصعوبة بالنسبة لهم ، ولكنهم عبروا عن انزعاجهم الشديد بعد رؤية هذا العرض ؛ فقد لمسوا خطورة هذه العملية ومدى عنفها . واتضح لهم أنها إفساد للعملية البيولوچية الطبيعية والنفسية ؛ وخاصة بالنسبة للمرأة التى تعانى مما يعقبها من اضطراب وندم مع شعور بالذنب واليأس .. ومن العجيب أن رأى البعض فى هذا الإحساس نوعا من العقاب للمرأة ، التى تقدم على الإجهاض ، وثمناً لابد أن تدفعه ، وأن الإحساس بالندم هو بقايا من العطف ، بقى فى نفس هذه السيدة فى غياب من كان له حق فى أمومتها ، ولابد للأم أن تعانى قسوة القرار الذى اتخذته .. كشعور إنسانى طبيعى .

ولأن المناقشة تدور أساساً حول الإجهاض كمفهوم - فى حد ذاته - وأن المرأة قد تتخذ هذا القرار لأسباب حتمية ومنطقية تناسبها . والشباب عادة يختلفون مع كبار السن ، الذين عادة ما يعارضون هذا الاتجاه ؛ فقد ساهم ذلك الفيلم فى إعادة النظر والاعتبار لوجهتى نظريهما ، بما احتواه من مؤثرات بصرية وسمعية ، وجعل الجدال الدائر يأخذ صورة علمية ومنطقية ، وقد ساهمت الحقائق المعروضة على الشباب أن يأخذ فى اعتباره ما توصل إليه علم الأجنة من أن ذلك الكائن الصغير لا يستطيع أن يحيا وحيداً ، وأن له احتياجات خاصة تساعده على النمو ، ولهذا لابد من تشريع ممارسة هذه العمليات واستنادها إلى الضرورة للقيام بها .

وعلى الرغم من أن مفهوم الإجهاض لا يرتبط بالمعنى الحقيقى للأمومة فى معظم الأحيان ، إلا أن المرأة جاهدت فى أمريكا للحصول على حرية ممارسته ، ذلك الحق الذى اعتبرته نصراً لها ومكسباً بالغ الأهمية ، ولكن بعد الحملات الدعائية القوية التى هدفت إلى تحجيم القيام به ووقفت ضد ممارسته بشدة ، جعلت النظرة لذلك الأمر تبدو أكثر عقلانية تجاه الأم والجنين ، وخاصة بعد سن التشريع الذى يقنن القيام به تحت إطار الضرورة الطبية فقط . وخاصة بعد أن أعلنت الإحصائيات الرسمية أن نسبة الوفيات فى السيدات المجهضات كانت أكبر من نسبة الجنود ، الذين ماتوا فى حرب ڤيتنام . ومع التوعية المستمرة أصبح تصور خروج الجنين فى مرحلة لا تسمح له بالاعتماد على نفسه ومواجهة البيئة الخارجية .. يبدو قتلاً ، مما كان له أكبر الأثر فى إعادة النظر فى مفهوم الإجهاض .